

جمالية النهايات في روايات "بن هدوقة"

د. صوالح وهيبة

جامعة الجزائر (2)

الملخص:

تتحقق جمالية نهاية كل رواية بما تتركه من أثر في نفس المتلقي وبما يخرج به عبرها من معارف وآراء تفيد في مواجهة النصوص والحياة بشكل عام. وتتجلى بما تفتحه من أفاق للقارئ يستقرئ عبرها الواقع والمجتمع الذي يدل على وطن وعلى عادات وأفكار بعينها. فتثير القارئ وتجذبه نحو نصوص سردية أخرى وتطور تذوقه للنصوص.

Le résumé

L'esthétique littéraire de la fin du roman se réalise par le truchement de l'impact qu'elle produit sur le lecteur ainsi que grâce aux différentes connaissances et avis qu'elle lui offre et qui lui permettent d'affronter, avec vigilance, les turpitudes de l'existence. Cette esthétique littéraire se dévoile notamment à travers les différents horizons qu'elle ouvre au lecteur lui permettant d'interroger le réel et la société entière qui renvoient à la fois au pays, aux traditions et à toute une idéologie. Ce faisant, le lecteur s'oriente, au prisme de cette esthétique littéraire découverte dans un texte antérieur, vers d'autres textes littéraires dans le dessein de développer son sens de lecture.

تعد نهاية الرواية الملخص الشامل لمجمل أفكار الكاتب المطروحة في الرواية وزبدة السرد، وموقعها في آخر النص يؤمن لها الرسوخ في ذهن المتلقي ويضيء النص ويكشف عن جماليته فتصل الفكرة الأساسية من إنتاج العمل وتكون ذائقة القارئ الفنية والمعرفية، وينمو الوعي الجماهيري بمختلف توجهاته.

تتساق كل نهاية رواية مع موضوع إنتاجها والمحيط الذي خلقها، والخروج عن هذه التوليفة الفكرية يستدعي البحث عن دوافعها، وهو ما ينمي حس التنبؤ لدى القارئ ويساهم في إنضاج تجربته القرائية والاستفادة منها. فكل نهاية هي حلقة وصل بين نصوص الكاتب تتلخص فيها مواقفه والمجتمع الذي كتب عنه، وتخلق كل نهاية رواية رغبة جديدة في المعرفة وتزرع مجموعة مفاهيم تتداول حتى تصبح قارة في المجتمع خاصة إذا وجدت أرضا خصبة تتلقفها وتحتضنها. فدراستها والاهتمام بها من باب أولى لتعزيز مكانتها في النص والاستفادة من مردودها الثقافي. «والحقيقة أن إبداع الأديب هو الذي يبعث أو بالأحرى يهيج الخبرة الجمالية لدى المتلقي أو المتذوق»¹ وللكشف عن قيمة كل نهاية سيتم التقيب والكشف عن دواعي وأسس بناء هذه النهايات في كل رواية وتقييم كل نهاية من خلال تأثيرها على المجتمع وعلى رصيد الكاتب.

تتبنى روايات **بن هدوقة** على مجموعة من القيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تناوله للموضوعات، وأدوات فنية بها يقدم تلك القيم. ومخالفة الكاتب للحكمة القائلة كل الطرق تؤدي إلى روما يكسر حس التنبؤ والتفكير الروتيني لدى القارئ في أن كل فكرة مآلها تلك النهاية حتما، فينجذب القارئ للنص ويعيش في حالة ترقب دائمة فتكون عنصرا مفاجئا ومثيرا و«طرب المتلقي لأي عمل أدبي إنما هو استجابة لمؤثرات فنية تنثير ملكاته الفكرية والشعورية، وتبعث خبرته الجمالية»² وهو الهدف من السرد لضمان التفاف المتلقي عليه، وهي النقطة التي اشتغل عليها الكاتب في كل رواياته حيث ابتعد عن النمطية في إنهاء رواياته وجعل من كل نهاية بابا جديدا للتساؤل والخيال، وجعل لكل رواية نهاية تميزها تتناسب والموضوعات المطروحة فيها.

نهاية رواية "ريح الجنوب"

موضوع الرواية: تأتي ريح الجنوب³ في مئتين وستة وستين صفحة وتعد واحدة من أهم الروايات الجزائرية، ويطرح الكاتب فيها ثلاث قضايا تتمثل في الأرض، التعليم ، المرأة . وتتمحور الأحداث حولها وتمتد عبر كل واحدة منها سلسلة من المواقف تمثلها شخصيات الرواية التي تتبنى توجهات الكاتب والمجتمع، تمثل الأرض رمز الحياة في المجتمع القروي ومصدر القوة والرزق والغنى فيسعى ابن القاضي لمصاهرة شيخ البلدية وتقديم ابنته نفيسة كضحية لإنقاذ أرضه من التأمين، فتحاول نفيسة الهروب من القرية لكنها لا تتجح بسبب تعرضها للدغة ثعبان فينقذها رابح راعي الغنم ويأخذها معه إلى بيته للعلاج ويكتشف والدها مكانها، فيقتحم الدار ويهجم على الراعي ويقوم بينهما صراع فتقوم أم الراعي البكماء بالدفاع عن ابنها بشج رأس ابن القاضي بالفأس فيرتد على الأرض جريحاً ثم تطرد نفيسة ، وينتهي المشهد بجرح كليهما جرحاً بليغاً، وتعود نفيسة إلى بيت والدها.

نهاية "ريح الجنوب" بين الفيلم والرواية: خلفت هذه الرواية جدلاً واسعاً عن نهايتها بعد تحويلها إلى فيلم⁴، وشكلت نقطة خلاف بين الكاتب والمخرج وهو ما يعني أنّ للرواية نهايتين بناء على أنّ «السينما نص، وأغنية الفيديو كليب نص، وصفحة الويب نص ولوحة الفن التشكيلي نص، وكلّها تخضع لآلية التلقي وتحتاج إلى تلقّ من نوع خاص، يناسب هذا المفهوم الجديد»⁵ وهو ما يجعل الفيلم نص فتكون نهايته مرتبطة بشكل مباشر بعملية إنتاجه التي اشترك فيها الكاتب والمخرج، حيث أراد المخرج أن تنثر المرأة على وضعها بنفسها وتكسر الإطار الاجتماعي الذي وضعوها فيه فسهّل هروب نفيسة، بينما أفشل الكاتب

مشروع هروبها من القرية ، موضحاً أفكاره « لم تتجح نفيسة في الهروب لأن الفرار لا يشكل حلاً من الحلول لاسيما فيما يخص بقضية هامة كقضية المرأة أولاً، ولأن قضايا الحرية بشكل عام لا تتحقق بعمل فردي ولكن في إطار جماعي ومنظم ثانياً»⁶ وكما أن العنوان هو عتبة النص لدخوله فالنهاية هي عتبة الخروج منه. والفرق بين التجريبتين يكمن في ما حمله المتلقي من معلومات ومعرفة التي تعد أهداف الكاتب من كتابته النص واشتغل عليها طول الوقت لتصل بهذه الكيفية بالذات دون غيرها. ف «النص ومبدعه لا يعومان في فراغ وإنما هما مرتبطان بعوامل تاريخية وثقافية مؤثرة»⁷

من هذه النهاية يتضح للقارئ أمرين :

الأول هو رفض الوضع المزري الذي لحق بالطبقة الشعبية جراء الممارسات الجائرة لإقطاعي القرية ومحاولتهم السيطرة على كل شيء والذي تمثل في سيطرة ابن القاضي على أهل القرية وكسر عيونهم بمساعداته وكسبهم إلى صفه، ومصاهرة شيخ البلدية لضمان تمرير مشاريعه.

الثاني في هجوم ابن القاضي على بيت الراعي ومحاويلته قتل رابح الراعي فتتحرك نفيسة نحو بيتها دون أن تحقق هدفها بالسفر. ومن هذه النهاية التي تتوزع في شكل ثنائيات تلخص نظرة الكاتب للمجتمع والأنظمة السائدة وقتئذ؛ فالنظام الإقطاعي المتمثل في ابن القاضي الجائر مرفوض من المجتمع الضعيف المتمثل في المرأة البكماء التي أصيبت في فلذة كبدها المتمثلة في كرامة المواطن، وبهذه الثورة التي تقلب الأشياء ظهراً على عقب يكون الوضع في حاجة إلى تأجيل بعض المشاريع حتى تستقر الأمور ويعاد تنظيمها بالشكل اللائق وتجهيز المناخ المناسب له. ويتمثل المشروع في التعليم الذي تمثله نفيسة التي تحاول مقاومة الواقع وسلطة القرار لكنها تقشل أو لنقل يتأجل حلمها إلى أن تترتب الحياة من جديد ويزداد إيمان المجتمع بضرورة التكاتف من أجل التغيير.

ينهي بن هدوقة روايته برجع نفيسة إلى البيت وهي نهاية مفتوحة تعبر عن معاناة المرأة وقضيتها المتشعبة، التي يصعب حلها بشكل بسيط، فالأمر لا يتوقف على قطار يقلها من مكان إلى مكان وإنما إلى ثورة فكرية جادة تنقلها من واقع إلى واقع أفضل.

نهاية رواية " الجازية والدرأيش "

تجاذب الأحداث في "الجازية والدرأيش": جاءت الرواية في متني وواحد وعشرين صفحة ينتقل الكاتب فيها بالمدينة إلى القرية عن طريق مجموعة من الشباب الذين يأتون إليها في مهمة بحث، ويرى الكاتب هذا الانتقال كحركة خارجة عن المألوف ومستعصية على الفهم والقدرة وحتى على سبيل التقدير والعادات «لابد أن تفهمي يا أختي الساذجة. أبونا عندما يتحدث عن المدينة، يقول: "تهبط". يعني: نتضع ! دشرتنا جد عالية. أبي صادق في تعبيره. المشكلة ليست في الهبوط إلى المدينة. إنما الصعود بالمدينة إلى الدشرة هو المشكلة. ⁸» وتتمثل مهمة الطلبة بحسب ما أشاعه الشامبيط «في إقناع السكان على الاستعداد للرحيل إلى القرية الجديدة، قبل أن يبني السد، وتقطع الطريق...»⁹ في حين ينظر الطلبة إلى هذا الانتقال كحركة إيجابية تميل عن الماضي منحنية على المستقبل ومتكئة على ما يؤمنه من تسهيلات لحياة أفضل وهو «في نظر الطلبة انتقال السكان إلى قرية سهلة يسهل اتصالهم بغيرهم، ويضاعف من حاجاتهم إلى أشياء الحياة الحديثة. وهو بالضبط ما لم يتسع إليه فضاء الدشرة.»¹⁰

مركزية الأحلام في نهاية الرواية: تنثور مجموعة من الأحداث تتعلق بشكل أساسي بالمكان والمرأة فيصور الجازية كأسطورة صعبة المنال ويفخّم قيمتها عند أهل القرية بإشاعة هالة من نور عند حضورها والتركيز على وصف جمالها والإشارة إلى نسبها. وهو ما رسم حولها دائرة يصعب على أي كان تجاوزها كما يصعب عليها الخروج عنها؛ فلم تتحقق أحلام الشباب بالزواج منها ولم تتحقق أحلامها بالارتباط بأي شخص.

تنتهي الرواية بتحقيق شيء واحد فقط من كل الأحلام التي اندثرت وهو زواج عايد من حبيلة، وتخليه عن حلمه بالزواج من الجازية الأسطورة ابنة الشهيد الذي قتل بألف بندقية ودفن في حناجر الطيور¹¹، وهذه الأخيرة لم يتحقق حلمها بالارتباط بمن أعجبت به وهو الطالب الأحمر الذي توفي في ظروف غامضة، وتبقى في انتظار خروج الطيب من السجن . كما لم تتحقق أحلام الشامبيط الذي سعى إلى ترحيل أهل القرية إلى قرية جديدة وبناء السد وقبول هذا السعي برفض أهل القرية الذين يرون أنها مشاريع من مصادر منبوضة، ومبدؤهم هو رفض مشاريع التغيير التي لا يصنعونها. ولم يتحقق حلم ابن الشامبيط بالزواج من الجازية لتطهير ماضيه، أما الطيب بقي بين خيارين «إذا رفضت الجازية الزواج مني، أتحدث إلى صافية، أخطبها ! إنني كلما فكرت فيها شعرت براحة تسري في أجزاء روعي»¹²

يتحقق حلم عايد لارتباطه بالواقع أكثر ولأنه أكثر حكمة في تقبله لظروف الحياة ومعطياتها، وفور سماعه قول الجازية بأنها تنتظر الطيب تحوّل مباشرة إلى خياره الثاني وخطب حبيلة من والدها، لعلمه أن «الجازية حلم، والأحلام لا تتحقق لكل الناس!»¹³

أثار انشغال قلوب الفتيات وحتى الجازية بالشاب الطالب الأحمر الضغينة ضده وتسبب في مقتله، وينسب الكاتب التهمة إلى الشامبيط بشكل غير مباشر

على لسان الطبيب في قوله: «الطالب الحالم لا يعرف أشراك الشامبيط»¹⁴ وهو بتر لكل يد تمتد نحو الجازية رمز القرية ورمز العلو والرفعة. إنَّ أحلام المغامرين عادة ما تفوق عملهم فتعجز قواهم على تحمل العقبات فتقتل مساعيهم وتتهار أحلامهم إما في الانتظار أم في التحول عنها لأحلام أكثر واقعية تتناسب مع مقامهم وقدراتهم ووضعياتهم.

نهاية " بان الصباح "

الإيقاع الاجتماعي في الرواية: جاءت الرواية في ثلاث مئة وثلاثين صفحة يدخل الكاتب بالقارئ عبرها إلى عمق المجتمع المديني إلى أسرة سي علاوة المجاهد الذي يعد ورقة رابحة عند أعيان المدينة وأصحاب النفوذ؛ فيدعونه لمناسباتهم للتمسح والتبرك بقيمته الوطنية وماضيه المشرف لتحسين صورتهم أمام المدعويين من نفس طبقتهم.

تزخر الرواية بمجموعة حمولات دالة على طبيعة المجتمع الجزائري في فترة ما بعد الاستقلال - القريب من الثورة- مختصر في أسرة الشيخ علاوة الذي يحيا في مجتمع مديني يحاول التأسيس لفكر جديد يتناسب مع الهوية العربية، بعد أن نخر المستعمر الفرنسي الكثير من القيم والعادات، تتألف أسرة الشيخ علاوة من عدد من الإخوة والأخوات والأحفاد وابنة عم اسمها نعيمة، جاءت لتكمل دراستها في الجامعة غير أنَّ الحظ لا يحالفها بسبب رسالة جاءت باسمها من كريمو حبيب ابنة عمها دليلة، يدعوها فيها للإجهاض ويعدها بالتكفل بكل مستلزماته، فتقع هذه الرسالة في يد الأب الذي يثيره الفضول لقراءتها ويكتشف خطيئتها؛ فيبقى فترة زمنية حائرا وغاضبا على ابنة أخيه دون أن يتخذ أي قرار في شأنها، تتأزم الأحداث عندما تقع نعيمة ضحية ابن عمها عمر الذي يتحرش

بها، وعندما تضبطه زوجته يقوم بصفع نعيمة وكأنها من قامت بالتحرش به؛ فتتجه الزوجة لتشكو نعيمة إلى والد زوجها وتخبره بأن نعيمة راودت زوجها عن نفسه، وهنا يتأكد الأب بأن عليه اتخاذ القرار الحاسم في شأن نعيمة فيستدعي والدها ويخبره بفضيحة ابنته.

تأثير التجربة الفردية في الرواية: تحكي الرواية عن أسرة تتألف من عدد من الأفراد متفرقي الفكر والآراء لا يجمعهم سوى الجلوس على طاولة يفرضها عليهم الأب ليشربهم أفكاره التقليدية. وتعالج الرواية مجموعة من المواضيع منها: اللغة العربية، الميثاق الوطني، صراع الأجيال، المجتمع، المرأة وتصوير حريتها ووضعها في المجتمع الريفي والمديني والفروق التي تحدد مصيرها في كل منهما. كما كشف الكاتب الغطاء عما يدور في المجتمع الجزائري عبر مؤسسة صغيرة هي الأسرة مبينا تحديات المرأة في نيل حريتها بطرق سلبية نظرا للضغوط التي تلاقىها داخل الأسرة؛ فتحاول الخروج عن التقاليد بداية بإنشاء دليلة لعلاقة مع كريمو والحمل منه حتى تنفيذا قرار المغادرة من البيت والاستتجاد برجل غريب.

يكشف الأب سر الرسالة في الصفحة ستة وأربعين ولكنه لا يعلن عنها إلا عبر حدث آخر يؤزم الوضع أكثر وتتكشف الحقائق في الصفحات الأخيرة من الرواية، ما يعني أنّ الكاتب استفاد من المساحة النصية لتدوير أحداث أخرى تؤمن التعرف أكثر على نوعية العلاقات بين الشخصيات، وفي ترقب لحظة الكشف عن الرسالة.

تتسبب الرسالة في تصدع الأسرة وعودة نعيمة إلى بيت أبيها، وتنتهي الرواية ببراءة نعيمة ومغادرة دليلة البيت، حيث يتوجه الوالد بنعيمة إلى الطبيب لإثبات صحة ادعاء أخيه من عدمه ويزج بها في الإسطبل حتى يتأكد بنفسه من عفتها.

تتبرأ نعيمة من التهمة ويعود بها والدها إلى بيت أخيه بعد أن صوّر نسخاً كثيرة من الشهادة الطبية ليثبت لهم شرف ابنته، أما دليلة فلم يكن ضرورياً بالنسبة لها أن يعلم الجميع بأن الرسالة تخصها فنعيمة نجت ولن تعود إلى البيت في كل الأحوال، أما الأم فألصقت التهمة بكنيتها مبررة بأنها تريد الاستيلاء على البيت. وتؤنب زوجها علاوة على تطفله الذي تسبب في هذه الكارثة، ويخيب أمل دليلة في اللجوء إلى الرجل الغريب بعد اكتشافها لهويته فتغادر إلى بيت صديقتها حتى تجد سكناً وتنتهي الرواية بتهنئة هالة لها « أنت الأولى التي تخرج من هذه الثكنة بارادتها ! » برافو « ! »¹⁵

تكشف نهاية الأحداث الستار عن الشخصيات لبعضها وهو كشف عن حقيقة التيارات التي كانت سائدة آنذاك والنظرة الدونية لكل ما هو ريفي، غير أن الكاتب يكسر حس التوقعات بأن يجعل الريف أكثر تفهماً وعقلانية باتخاذ طرقات علمية ومتحضرة لاتخاذ القرار الصائب دون ظلم أحد، وهو إشارة إلى العدالة التي تعيش في نفس المجاهد الذي دافع عنها ومارسها أيضاً وكان أكثر تفهماً من أخيه الذي عاش في المدينة وأعطى صورة ساذجة عن الحياة المدنية التي يهتم فيها الأفراد بالشكليات الفارغة، ومحاولات مستميتة للاستلاء على حقوق الغير وحقوق الدولة، عبر ممارسات سلطوية متفرقة مثلها الكاتب في المناسبات التي تعد ملتقى أصحاب النفوذ والمناصب لتقديم الرشاوى واستغلال المناصب، وتبادل المصالح على عاتق المواطن البسيط أو على عاتق الدولة عبر تسخير مؤسساتها لمصالح خاصة فتسوء سمعتها بفعل هذه الممارسات مما هو معروف في كل المجتمعات.

نهاية رواية "نهاية الأمس":

موضوع الرواية: تتألف الرواية من مئتين وأربعة وستين صفحة وللعنوان دلالة مباشرة بنهاية الرواية وبداية منه يشير الكاتب إلى نهاية واضحة للأحداث التي جرت في حقبة زمنية معينة مدللاً عليها بالأمس وهي فترة الاستعمار التي تنتهي فتسفر عنها مجموعة نتائج تتعلق بالأسرة الجزائرية وعمق المجتمع الذي تستمر معاناته بعد الاستقلال متحماً كافة تبعاته أهمها التصدع الأسري الذي يحدث جراء ممارسات شنيعة تمس كرامة الأسرة وشرفها.

ازدواجية النهاية: ينهي الكاتب الرواية بنهايتين كل منهما تعبر عن رؤى تعتمل في نفس الكاتب إزاء الأوضاع الاجتماعية في حقبة معينة من الزمن وأعطى عبر كل نهاية متنفسا يرضي فئة معينة من القراء.

النهاية الأولى والصوت المكتوم: تقرر رقية مواجهة الماضي والكشف عن هويتها لزوجها القديم متخطية كل مخاوفها عبر تخطيها لحواجز المكان وإزاحة الستار الذي كان يحول بين الحقيقة ومعرفتها « اجتازت رقية عتبة الباب الخارجي للمدرسة أزاحت القناع عن وجهها وتبعت ابنها إلى القسم في ثبات»¹⁶ تزيج هذه المواجهة عبئاً كبيراً عن الزوجة فيما يتحمله الزوج بكامل ثقله بشكل مفاجئ.

يعجز الزوج عن إخبار زوجته القديمة بكل ما كان يحسه من مشاعر جميلة تجاهها وهي بعيدة عنه، وهذا العجز نابع من طموحاته التي تتركز في المستقبل وهي تمثل الماضي بكل ما يحمله من ألم وقسوة. أما هي فلم تفارق ماضيها إلا بموت ابنتها فريدة التي تمثل الماضي السعيد والشريف، وبقيت معروفة للناس بالماضي الأسود الذي لم يفارقها بزواجها من الحركي والإنجاب منه، وبقي يطاردها ويقف حجرة عثرة أمام مستقبلها.

ينتهي المعلم من تسجيل التلاميذ وتهيئة المدرسة للدخول المدرسي، ويقرر مغادرة هذه القرية التي تحمل ماضيه والتوجه لمكان آخر لتحقيق مستقبله وحلمه، واختار أن يستمر في ثورته على التخلف والجهل.

يختفي صوت رقية تماما في هذه النهاية وقمع الكاتب لصوتها هو كناية عن قمع المجتمع للمرأة وآمالها ومشاعرها، والرغبة في رؤيتها هو لإشباع الفضول المتعطش لدى الشخصية وليقطع به مشيمة الماضي نهائيا الذي عشت فيه صورة زوجته السابقة بكل سوداويته وألمه وذكرياته الجميلة معها. ويكمل الكاتب الرواية بتفاصيل حفل الختان و تفاصيل وصول الماء إلى المدرسة وتسجيل الأبناء فيها وتوظيف أم الحركي وإنشاء مطعم فيها، وهي إشارة من الكاتب لإدماج أبناء الوطن في لحمه واحدة، ثم ينتقل للحديث عن حوار المعلم مع المفتش للانتقال إلى مدرسة أخرى ومواصلة سعيه، ويغادر المعلم في نفس السيارة التي أتت به أول مرة ويترك قلبه معلق بين القبور التي تتوي جثة ابنته، يغادر لاستكمال مشروعه في قرى أخرى ويترك ماضيه بكل ما يحمله من آلام وجراح.

إن اختيار القارئ للنهاية الأولى يشير إلى مواقفه الاجتماعية وتعصبه للأفكار الذكورية التي لا تتسامح مع المرأة حتى لو كانت مجبرة على الوضع السيء الذي آلت إليه. ومساندته لمواقف الرجل وعقليته العربية التي تجبره على الرضوخ لمزاعمه ولأحاديث الناس ومواقفهم اتجاه الشرف المحصور في كل ما يتعلق بالمرأة حتى لو كان الحل الوحيد الذي أمامها للخلاص من وضع أسوأ.

هنا يكون الضرر على مستويين الأول: يخص الفرد الذي يتهرب من ماضيه نحو مستقبل يأمل تحسينه وهو فشل أصلا في مواجهة ماضيه وتطهيره؛ فلا يمكن التأسيس لبناء جديد على بناء قديم قد يثور في أي لحظة أو يتآكل أكثر فيتهدم المستقبل بكل جديده المزعوم. فيتحمل الفرد تبعات هذا التفكير غير قادر

على إسعاد غيره مادام يحمل بين جوانحه معاناته فهروبه الأول هو فكرة سائدة في ذهنه وخطته البديلة في كل مرة يتقابل فيها مع ماضيه.

أما على المستوى الثاني: فهو يخص المجتمع الذي يبني بفعل التراكمات الناتجة عن عُقد فردية فتورث التقاليد بمرور الزمن حتى تصبح مبادئ وقوانين سائرة ومتجذرة في النفس وكل محاولة لكسرها أو تقويمها يعد عيباً وحراماً. وهو انسياق تام لكل ما هو متوارث يعد من أصول المجتمع.

النهاية الثانية: تختلف النهايتين في قرار المعلم الذي تتسع رؤيته ويحاول أن يللم جراحه وجراح رقية بإعطاء الأعذار لكيلها «هناك ماضٍ دنس ويهمني بالدرجة الأولى لأنني جزء منه فعلي أن أظهره وليس هناك وسيلة لتطهير الماضي كبناء مستقبل أفضل. هذا هو الحل الصحيح أما أن أقف موقف المتفرج من ماضي بذريعة التفاني في المستقبل وحده، فأغالط نفسي لا أكثر.»¹⁷

يصح الكاتب رؤية المجتمع للمرأة عبر تصحيح رؤية الرجل لها ولوضعيتها البائسة في الماضي والحاضر، وذلك بفتح حقل من الأسئلة في ذهنه يعينه على تصور الحياة التي كانت تحياها رقية، ونوعية الضغوط التي حاصرتها حتى تزوجت من الحركي بعد أن كانت زوجة مجاهد شريف. يحاول المعلم معالجة هذا الفكر ومنع استمراره نحو المستقبل وتقويم هذا المسار بمواجهة الماضي وتحمل مسؤولياته كاملة والاستمرار في مشروعه وفتح المدرسة والزواج من رقية بالرغم من مخاوفه المتمثلة في تباين المستوى وطريقة التفكير. ومخاوفه أيضاً من ردة فعل ابن الصخري وأهل القرية من زواجه من أرملة الحركي وتوظيف أمه. وهذا التحدي هو تحدٍ للذات أولاً وتحدٍ للفكر التقليدي السائد في عمق المجتمعات ثانياً. هذا من جهة و إعادة بناء للمفاهيم الإنسانية التي تصدعت

بفعل الأزمات المتوالية عبر العصور التي تخلف ضحايا بوجوه متعددة على عدة مستويات من جهة أخرى.

وقرار البشير الزواج من رقية هو إقرار بالمسؤولية وتحد للفكر الأحادي الذي يبرئ الرجل ويدين المرأة تحديدا ويحملها ذنب ما لم تقترفه برغبتها، هذه المرأة نفسها تشاطر المجتمع فكرته وتحمل نفسها هذا العبء «هي لا تؤاخذ هذا الزوج القديم على غيابه. بل تؤاخذ نفسها إن لم تصمد في وجه الرزايا»¹⁸ مع أنها ضعيفة لا تستطيع مقاومة الظروف التي أرغمت على الوقوع فيها. ويظهر صوت رقية مبحوحًا ومتألمًا تعنف نفسها وتلومها عن أوضاع لم يكن لها يد فيها، وتنتقل من خط التهميش إلى ساحة السرد لتعبر عن مشاعرها وعن سعادتها بهذا اللقاء الذي يفتح في نفسها الآمال نحو غد أفضل ينسيها آلامها.

يتخذ البشير قرار الزواج بها بروح الجندي الذي يستكمل رحلة التحرير ويتوجه نحو دار العجوز ربيحة التي تستقبل الخبر كأنه ولادة فجر جديد، أما رقية فيصيبها دوار وتحاول التماسك أمام الخبر؛ فالجميع لا يرى الموضوع من زاوية رؤيتها النازحة لتشمل ماضٍ سحيق فتت دواخلها وأزعجها بقدر ما يزعج قرار رفضها ذلك الخاطب الناسي لوعوده. ويحزن قرارها العجوز ربيحة التي يعود الليل بظلمته ليعتم سعادتها بقمع هذا النبأ السعيد الذي سيمسح كل ماضيها ويضمن لها قوت يومها مسحته رقية بحرف واحد "لا". ليدير الكاتب في لحظات قليلة كفة الميزان لصالح كل الأطراف بكلمة واحدة تقولها رقية "نعم" وتقبل الزواج منه ليعود الفجر من جديد ويضيئ الحياة.

تؤسس هذه النهاية لفكرة المقاومة وضرورة استمرارية مسيرة التحرير التي بدأت بثورة بشرية لتنتهي بثورة ثقافية وفكرية تجدد ملامح الحياة وقوانينها. ويشير الكاتب على لسان السارد إلى استحالة وجود هذه النهايات السعيدة ويشبهاها

بالأفلام ، ليس لأن تحققها صعب ولكن لأن العقلية العربية مشتتة بين التقاليد ووجوب اتباعها وبين أملها في سعادة تتصورها مستحيلة التحقق.

نهاية " غدا يوم جديد "

موضوع الرواية: تتألف الرواية من ثلاث مئة وثمانية وخمسين صفحة وهي عبارة عن سرد لذكريات امرأة قروية تسمى مسعودة تتزوج من قدور العامل بالمدينة لترحل معه إلى المدينة الحلم؛ فتحدث مشكلة تتسبب في تعطلهما في البداية؛ ثم يدخل الكاتب في مرحلة زمنية تتعلق بحياة مسعودة في المدينة يقدمها للقارئ في شكل ذكريات تسردها البطلة مسعودة على الكاتب، وتكشف الذكريات عن حياة المدينة، والزوايا، وطبيعة المرأة في المدينة وجراتها، وسذاجة الرجل المدني مقارنة بصلابة الرجل القروي وغيرته على عرضه.

هندسة الذكريات في غدا يوم جديد: تنتهي الرواية بسرد مسعودة لذكرياتها عن والدتها وزواجها من والدها ثم بعزوز وهي الصورة المتكررة للمرأة الجزائرية في تلك الفترة من الزمن، ويشير الكاتب إلى ذلك في قول مسعودة «هي ككل الأمهات الأخريات في زمنها، كن حبيبن من أجل أبنائهن وأزواجهن، لا يحيين لأنفسهن»¹⁹ وفي مقارنة بين نوعية انتظار المرأتين كان انتظار مسعودة في محطة القطار ثورة على وضعها الرتيب في القرية، فاتخذت من زواجها وسيلة للحياة في المدينة ومن طريق السكة الحديدية معبرا لأحلامها، وهو ما يشير إلى أنّ فعل السكون في محطة القطار سبقته حركة فكرية ودينامية لتجاوزه نحو حركة ثانية تتمثل في انطلاق القطار بها لتحقيق هدفها. أما انتظار الأم فكان في اللاشيء وهو ما يعبر عنه بإنكار الذات أو ذوبانها في قوالب تراها أهم من نفسها ومن التفكير في تغيير وضعها، فرضخت أمام الوضع الذي أجبرت عليه

وسلمت به فهي تراه شيئاً لصيقاً بها كامرأة ريفية. وتعد نموذجاً للمرأة المضطهدة والمغلوب على أمرها وتستشعر وجوب إخفاء مشاعرها دائماً، غير أن هناك بعض المواقف التي تجعلها خارجة عن ذلك الزمن فتظهر مشاعرها للعيان عندما قتل زوجها وهي أقصى المشاعر والأحاسيس التي تطفو إلى السطح بسهولة لأن منبعها الحب الدفين الذي تكتمه المرأة في ذلك الوقت. ويكشف الكاتب عن مشاعر الأم الداخلية عبر عيون ابنتها مسعودة التي كانت أكثر قرب منها بوصفها الابنة وبوصفها امرأة تعيش نفس حالتها، ويظهر حزن الأم مرة أخرى عند مغادرة مسعودة القرية فلا تنام ولا تتكلم فتشبثت بفستان ابنتها عندما تهم بالمغادرة ويدل هذا الفعل على تعلق الإنسان بماضيه وبجذوره التي تمنحه الحياة والوجود، ولا تتركه حتى يطلب قدور منها أن تتركها ويمثل صوت قدور هنا قدر مسعودة بالانفصال عن كل ماضيها وفاصلاً بين حلقات الزمن والمكان المترابطة « لا تمسكيها، دعيها تخرج. إنها مسافرة إلى الجزائر، إلى حياة جديدة، إلى غد جديد ! »²⁰ تفتتح أصابع الأم عن الفستان وتتنظر إلى ابنتها كأنها تفقدها إلى الأبد وهو ما حدث فعلاً فكان الانفصال سبباً في انتهاء حياتها ووجودها، وبالرغم من حزن مسعودة على والدتها إلا أنها كانت سعيدة بالغد الجديد . الغد الذي سبق نهاية الرواية ولم يكن في الصورة التي تأملتها مسعودة ما يدل على أن حلمها أو تصورهما للمدينة قبل الرحيل إليها لم يكن في مستوى الواقع المليء بالخيبات، ما جعل الذاكرة باباً مشرعاً نحو الماضي في لحظات الضيق.

وهذا التأجيل للبداية التي انطلقت منها مسعودة هو رغبة من الكاتب في غد جديد غير ذلك الذي عاشته مسعودة، ويأمل الكاتب أن ينتهي تماماً ومثلّه بموت الأم وهو الذهاب دون عودة، وهو كسر حلقة الماضي عن الحاضر وتفتلت

مسعودة نهائيا من ماضيها بموت الأم ، وتمثل المحطة المكان الفاصل بين حياتين ومجتمعين طالما وجدا في كفتي نقیض.

یؤسس الكاتب لبداية جديدة للرواية وبعطي عبرها أملا لغد جديد يشبه انطلاقتهما من المحطة دون معیقات كما أشار إليها «القطار هذه المرة لم يتخلف. ولم يكن أحد بالمحطة سوانا. ²¹» وهي البداية التي أجلها الكاتب ليختم بها الرواية فكان السرد بطريقة تراجعية استخدم فيها الذكريات بداية من الغد الجديد الذي كان مأمولا في الأمس.

تشكيل النهاية: يركز الكاتب على المكان والمرأة بشكل أساسي في كل أعماله لما لهما من أهمية في بناء الوطن وهويته، فالمكان هو الأرض المقدسة المسقية بدماء الشهداء وطرح الكاتب قضيتها في كل رواياته يدل على توجهاته الثورية ووطنيته الكبيرة واهتمامه بتنمية الوطن من خلال تسليط الضوء على المشاكل التي كانت تعترض المجتمع الجزائري في فترة ما بعد الاستقلال، فالأنظمة والتيارات التي توالى عصفى بمعنى الاستقلال وأضحت الأرض فريسة لكل من يمتلك سلطة اتخاذ القرار، خاصة في المؤسسات الهامة التي تعد أساس بناء الوطن كالأسرة والمدارس والمستشفيات والدوائر والجمعيات والمساجد ودور التعليم بمختلف توجهاتها.. ولم يدخر الكاتب جهدا في كشف عورات أصحاب النفوذ الذين مثلهم في كل من: ابن القاضي، ابن الصخري، الشيخ علاوة، الشاميبيط، ورؤساء الزوايا بالمقابل لم يجعل لهؤلاء السلطة المطلقة بأن جعل شخصيات تمثل القيم والأخلاق تقوم بالتصدي لهم بالرغم من ضعفهم تمثلت في كل من: المرأة البكماء، المعلم، أو يتدخل القدر في صدهم والنيل منهم أو ليقر العدل وبعطي الحق لصاحبه.

قضايا المجتمع في بناء النهاية: يتبنى الكاتب قضية المرأة في كل رواياته وبعطي لها أهمية من حيث تعالقها بمواضيع كبرى كالتعليم والأسرة والمجتمع،

فنتكرر فكرة اضطهادها في كل الروايات متمثلة في نفيسة التي تروح ضحية أطماع والدها، وفي مسعودة التي تتساق وراء أحلامها وفي دليلة التي تصير ضحية عواطفها، وفي نعيمة التي تقع تحت رحمة الغير وتتهم زورا، وفي الجازية التي تتضخم صورتها لدى الجميع فينهار مستقبلها ، وفي رقية التي تقع ضحية العادات وظروف الوطن.

أسبغ الكاتب كل رواياته بما يكفل له الريادة الحققة ليس في كونه أول من كتب الرواية العربية في الجزائر، ولكن بدفاعه عن مقومات الوطن والوطنية والتنبيه للتصدعات التي تمس القواعد الأساسية لبناء الوطن. وتعدى دوره إلى تحميل كل كاتب قضية الوطن وتوجيهه للطريقة المثلى عند طرحه القضايا الهامة في قوله : « الأديب عندما يتحدث عن الواقع لا ينبغي أن يلتصق بال الحالي والمتغير من هذا الواقع بل يأخذ من جزئياته النمطية النموذجية المعبرة التي من الصعب أن تتغير بسهولة والتي تعرقل مسيرة المجتمع»²². والدعوة الضمنية التي أرفقها في كل رواياته هي دعوة المواطن الجزائري للحفاظ على الأرض، والدفاع عن حقوقه وأن يواصل رفع مشعل الحرية والكرامة ومواصلة حركة التطوير عبر تعليم المرأة بوصفها العروة الوثقى لقيام المجتمع.

تتحقق جمالية نهاية كل رواية بما تتركه من أثر في نفس المتلقي وبما يخرج به من معارف وآراء تفيده في مواجهة النصوص والحياة بشكل عام. وتتجلى بما تفتحه من أفاق للقارئ يستقرئ عبرها الواقع والمجتمع الذي يدل على وطن وعلى عادات وأفكار بعينها. فتثير القارئ وتجذبه نحو نصوص سردية أخرى وتطور تذوقه للنصوص.

الإحالات والهوامش

- ¹ - ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي طبيعته - نظرياته - مقوماته - معايير - قياسه (ط1، عمان: دار الفكر، 2009م)، ص23.
- ² - ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي طبيعته - نظرياته - مقوماته - معايير - قياسه ، ص23.
- ³ - عبد الحميد بن هدوقة، ربح الجنوب، (ط5، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت).
- ⁴ - https://www.youtube.com/watch?v=L3JXVwi_XZ8
- ⁵ - مصطفى الضبع، نص جديد ومتلق مغاير، قراءة في الملامح الجديدة للكتابة والتلقي، أعمال مؤتمر أدباء مصر (الثقافة السائدة والاختلاف)، الدورة العشرون (بورسعيد: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2005)، ص12.
- ⁶ - <https://www.youtube.com/watch?v=5NWuwA8B9T4>
- ⁷ - مسلم حسب حسين، جماليات النص الأدبي دراسات في البنية والدلالة، (ط1، لندن: دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م)، ص175.
- ⁸ - عبد الحميد بن هدوقة، الجازية وال دراويش، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983م)، ص17.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص58.
- ¹⁰ - عبد الحميد بن هدوقة، الجازية وال دراويش، ص58.
- ¹¹ - والمقصود به أنه تعرض لطلق كثيف من الرصاص وبقيت جثته طعاما للطيور دون أن تدفن.
- ¹² - عبد الحميد بن هدوقة، الجازية وال دراويش، ص150.
- ¹³ - المصدر نفسه، ص221.
- ¹⁴ - عبد الحميد بن هدوقة، الجازية وال دراويش، ص10.
- ¹⁵ - عبد الحميد بن هدوقة، بان الصبح، (ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م)، ص330.
- ¹⁶ - عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، (تونس: مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، 1985م)، ص236.

-
- 17 - عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمل، ص 250.
- 18 - المصدر نفسه، ص 263.
- 19 - عبد الحميد بن هدوقة، غدا يوم جديد، (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2012م)، ص 356.
- 20 - عبد الحميد بن هدوقة، غدا يوم جديد، ص 358.
- 21 - المصدر نفسه، ص 358.
- 22 - <https://www.youtube.com/watch?v=5NWuwA8B9T4>